الخطاب الأدبي بين بنيات النصّ وبيّنات الثقافة النقديّة

أ.د عبد الكريم بكري
قسم اللغة العربية
جامعة وهران

نحاول في هذه الدراسة أن نقف عند المعارف والخبرات والمهارات المنهجية التي يتطلبها النص الأدبي باعتباره ملتقى الدراسات والنظريات والتوجهات التي يقدمها الفكر الإنساني عن حقيقة الأدب، وعلاقته بحياتنا الاجتماعية، حيث سوف نرى أن أسرار النص والاطلاع على ذخائره وكنوزه وكل ما يخبئه في بنيته العميقة من قيم جمالية وفنية، إنما تتكشف بفضل ما نودعه فيه من آليات وأدوات وضعها العارفون بطرائق القراءة المتبصّرة بعوالم النص، حيث ليس يخفى أن القراءة الأدبية مستويات وزوايا متفرقة ومختلفة وأن دلالة النص تتعدّد وتتلوّن بتعدد القراءات والرؤى والموازين التي تقوّم بها الأعمال الأدبية.

والدراسة في مجملها، نظرات ووقفات متنقلة بين مكونات النص وبنياته الدالة وبين ما قيل عن خلفياته الاجتماعية والنفسية وأسراره التركيبية.

وقبل أن نمضي بعيدا في هذه الاستقصاءات اللسانية، نود أن نوضح أننا ننظر إلى بنيات النص على أنها الأعضاء التي يتشكل منها الجسم ويؤدي بفضلها وظائفه التواصلية،وأن النقد الأدبي وساطة تواصلية بين الكاتب والقارئ أو المتلقي، وهو موقف وتحليل للنص وإعادة إنتاجه من جديد.

وانطلاقا من هذه العلاقات المتشابكة والمتداخلة بين القارئ والمتلقي،وبين اللغة والدلالة، بين الألفاظ والصور الذهنية المرتبطة بها، والتي تمليها خصوصية الخطاب الأدبي، فقد دعا النقاد واللغويون إلى ضرورة الفصل بين العالم المتخيل الذي يخلقه الأديب بآلياته المتعددة اللغوية والأسلوبية والإيحائية، وبين العوالم الواقعية الأخرى التي نمارس فيها حياتنا اليومية.

هذا الفصل الذي يدعو إليه النقاد من شأنه أن يمكننا من إقامة تفاعل ديناميكي متحرك بين العالم الفعلي والعالم المتخيل وان ننشئ عالما يتشكل من تصوراتنا لعوالم منسجمة متداخلة بيننا وبين الأديب المبدع، ومن هنا تأتي أهمية النظر في مكونات الخطاب الأدبي، وما يحمله من إيحاءات، وما يسوقه من مواقف وسياقات، لأن هذا النهج، هو الذي سوف يسمح لنا بقراءة النص الأدبي قراءة تمكننا من إقامة هذه العلاقة وذلك الترابط الذي تحدثنا عنه [1] بحيث يصبح القارئ المفترض يشارك الكاتب في المعرفة التي ينشأ منها النص وفي الاطلاع على مجموعة من الافتراضات، والآمال، والمعايير حول ما هو ممتع، وما هو جميل وما هو قبيح، وما يعد صحيحا وما ليس كذلك[2] .

يحدث كل ذلك بفضل ما تثيره الألفاظ من صور ذهنية، وأبعاد دلالية تلقيناها من الخارج "،وعلى هذا الأساس تصبح اللغة لا تكتفي بنقل المعاني والصور المحدودة، وإنما تصبح وسيلة للإيحاء. ولما كانت وظيفة الأدب هي توليد المشاركة الوجدانية بين الكاتب والقارئ،قالوا بأن الأدب يسعى إلى نشر العدوى الفنية، ونقل حالات نفسية من المبدع إلى القارئ"[3]

فاللغة هي جوهر أدبية الأدب، وسالبة أدبيته في آن واحد، وبفضلها تنسج روابط التوصل بين القارئ والكاتب، وأية غفلة عن هذه العلاقة الجدلية،ستجعل الأدب قراءة فكرية موضوعاتية،أي قراءة لا تقبل عناصر الأدبية في النص[4] .

نستنتج من كل ذلك،أن هناك علاقة جدلية بين النص وبين المعارف الإنسانية التي تساعد على بلورة ما في هذا النص من أفكار وصور، وإيحاءات ورموز، وأن اللغة باعتبار وظائفها الاتصالية هي مادة الأديب، وأداته التي ينسج من خلالها روابط التواصل بينه وبين القارئ. ومن هنا تأتي أهمية البحث عن اللغة التي يستقيها الأديب وهو ينشئ عمله الإبداعي للوصول إلى معرفة المقاصد التي يشير إليها في قاموسه الشعري، أو النثري. وهي لعمري مهمة ليست بالسهلة إذ ليس من السهل الوصول أو الحصول على كل ما تشير إليه مكونات النص من دلالات وأبعاد وليس من السهل كذلك وصف التأثيرات وردود الأفعال التي تثيرها الألفاظ في القارئ أو السامع[5] .

فالعمل الأدبي يمثل خبرة خبرها المبدع كما يقول النقاد، لأنه إنما يبدع إذ يبدع بعد إعداد عميق ومعقد ليقدم عمله في إجمال خارجي للقارئ، ومهمة الناقد أو القارئ الفاحص في هذه الحالة هي أن يقوم باستقصاء كل المكونات والعناصر التي ولد بفضلها وفي أجوائها العمل الأدبي بحيث يخلق في ذهنه نوع الحالة التي مر بها الشاعر[6] من شأن الناقد أن يغوص في باطن القصيدة أو الرواية أو المسرحية من أجل أن يستوعب التجربة المكتملة في كل منها [7]

هذه العملية النقدية المعقدة هي التي كان يشير إليها شعراء وكتاب العربية منذ وقت مبكر،فلقد أنكر بشار بن برد أن يكون بمقدور

اللغويين الحكم بين جرير والفرزدق فقال فيما معناه: إنما يعرف أسرار الشعر من له القدرة على القول مثله وسايره في ذلك البحتري، فقال:"إنما يعلم ذلك من دفع في سلك طريق الشعر إلى مضايقه وانتهى إلى ضروراته"[8]،وكأنه يستبعد أن يكون في مقدور النقاد والدارسين إدراك مقاصد الشاعر والأديب، والوقوف على أسرار بناء النص. ولكن النقاد لا يريدون من الشاعر أو الروائيّ أن يشرح لنا ما يريد قوله، لأنه بذلك يقضي على رغبة الاستكشاف التي تتولد لدى القارئ وهو يقرأ النص لأنه بذلك يقتل نفسه بوصفه أديبا، ويقتل عناصر الأدبية في عمله الإبداعي، فالأدب ما هو إلا تفاعل بشري مع العوالم التي يصورها الشعراء والروائيون، ومهمة الناقد هي البحث عن الأفكار والأسرار الجمالية التي يختزنها النص في بنياته المختلفة لتمريرها في مخبر التجارب التي تفضي به إلى استنتاجات ربما لم ترد على خاطر الأديب نفسه.[9]

ويمكن القول، إن منهج التحليل النفسي الذي جاء به فرويد في العصر الحديث قد حاول أن يمنح للناقد أدوات وطرائق لتحليل العملية الإبداعية، إذ حاول ومعه تلامذته الإجابة عن أسئلة كثيرا ما تدور في أذهاننا ونحن نقرأ أعمال كبار الأدباء مثل:من أين للأديب هذه الصور والمعاني ؟ ومن أين له هذه القدرة على التعبير والإبداع؟

ويجيب أصحاب هذا المنهج، بأن تلك الصور والمعاني ترجع إلى رغبات مكبوتة عند الأديب في طفولته سرعان ما تتراجع إلى اللاشعور وقد تظهر هذه الرغبات بواسطة أي مثير يطفو بها إلى دائرة الشعور ويحاول الأديب أن يجد في التعبير بالأدب وسيلة لإشباع هذه الرغبة.[10]

ولقد دعا كثير من النقاد والأدباء في الغرب والعالم العربي - منذ منتصف هذا القرن- إلى الإفادة من هذا المنحى النفسي في دراسة الأدب.

وإذا كان الأسلوب هو الذي يحدد نفسية الكاتب وميوله، فإن بعض الكتاب في الغرب يذهبون إلى حد القول، إن الأسلوب هو الكاتب نفسه، فالتركيبة النفسية هي التي تملي على الكاتب أدواته اللغوية وطريقة تشكيلها وصياغتها "فروح الكاتب تمثل النواة المركزية التي يدور حولها نظام الخطاب الأدبي، وهي النظام الشمسي المتحكم في عناصر النص جميعها، لذا وجب على الناقد وضع اليد على هذه الروح المنظمة، فهي روح النص لان اختلاف أدوات التغيير راجعة لاختلاف أرواح الكتاب". [11]

وهذا النهج الذي جاء به *spitzer* في أواخر القرن الثامن عشر لا يبتعد كثيرا عن المنهج النفسي، عندما يطلب من الناقد النفاذ إلى أبعد أغوار الذات المنتجة بوصفها ذاتا متفردة بتجربة نفسية خاصة أفرزت إنتاجا لغويا خاصا[12] .

وبذلك نستطيع– بالاستقراء النفسي– أن نستكشف الخصائص المميزة التي تفضي إلى روح الكاتب؛ ومهما اختلفت الزوايا والرؤى التي ينظر من خلالها إلى العمل الأدبي، فإن العمل الإبداعي يظل قيمة إنسانية رفيعة في ذاته، بل هو مجموعة قيم جمالية وفنية، وعلى الدارس الناقد أن يستقصيها ويستخلصها.

وتأسيسا على ذلك فلقد ذهب النقاد المحدثون إلى حد القول، بأن الأسلوب الأدبي ينبغي أن يكون علما قائما بذاته يستنير به الناقد وهو يحلل العمل الأدبي، بحيث يتوسل لذلك بالظواهر اللغوية والانتقائية، والترتيبية، وهذا انطلاقا من قاعدة أسلوبية مؤداها أن أدوات التعبير مختلفة لاختلاف أرواح كتابها –كما رأينا- فالكاتب يتمتع بشيء أساسي أثناء العملية الإبداعية هي الحرية التي يتمكن من خلالها تنظيم وإعادة تنظيم الكلام الفردي كلما دعت متطلبات العملية الإبداعية إلى

ذلك ويتعين على الناقد أن يبحث عن سر الإبداع في كل ما يصدر عن الأديب من صور وتراكيب وأنسجة لغوية مختلفة، ويطلب من الناقد البدء بقراءة النص قراءة متكررة ومتواصلة حتى يتبين للقارئ ما يجلب اهتمامه ويغريه بمتابعة الومضات والإشارات التي تمكننا من إدراك القاسم المشترك بينها، ويقف على الخصائص الفنية التي تميزها ذلك، لأن عملية القراءة تسير في اتجاهين مختلفين متبادلين وليس في اتجاه واحد كما كانت ترى بعض الاتجاهات النقدية الأخرى،فهي تتجه من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص ((فبقدر ما يقدم النص للقارئ يضفي القارئ على النص أبعادا جديدة قد لا يكون لها وجود في النص[13] لأن هذا القارئ الذي نتحدث عنه طرف مستقبل، ومنغمس في النص يعيش عملية الصنعة الخيالية للنص من أولها إلى آخرها وهو الذي يستطيع أن يفك الشفرات التي تعمد الكاتب أن يودعها في النص وعندئذ يتحقق الهدف الأساسي من التوصيل بين مرسل ومستقبل[14]

نخلص من كل ذلك، إلى أن مفتاح سر العملية الإبداعية يكمن فيما تسعفنا به المنظومة الإبداعية من ضوابط وأعراف تلتئم بفضلها مكونات الجملة والنص.غير أن الدراسة الأسلوبية والنقدية لا تكتفي باستقصاء العلاقات المتبادلة بين مكونات النص الأدبي، لأنها تقف أيضا على التغييرات التي تحدثها الشبكة السياقية المحيطة بكل مكونات العمل الأدبي بحيث يتم تحديد الرموز المعنوية والإيحائية التي يتضمنها بصورة ظاهرة، أو مستترة[15] .

وسوف نقتصر في هذه الدراسة على إبراز جانب له أثره وأهمية في قراءة النص، والانغماس في أجوائه وظلاله المختلفة، حيث تبين من خلال قراءات متعددة أن الأفعال بدلالاتها، وألوانها الزمنية المتنوعة

المتقلبة تمكن الكاتب من إرسال صور وإشارات لا تحتملها الكلمات ولا تتضمنها مكونات النص في قراءاته الأولية،إذ كثيرا ما يخرج الأديب عن قواعد الفعل الزمنية المعروفة فتطوى الحقب الزمنية وتتقاطع طولا وعرضا، وكثيرا ما يتجول الكاتب في ثنايا الأحقاب والعصور- انطلاقا من الحاضر- عن طريق الاستعمال الفني للأفعال والأدوات النحوية، فقد يجعل الكاتب أو الشاعر الأحداث الماضية تمتد إلى الحاضر أو المستقبل وقد يجعل أفعال الحاضر والمستقبل تلتفت إلى الماضي لتنقله إلى صورة الواقع المشاهد، فزمن الفعل عند شاعر الجزائر **مفدي زكرياء** لا تخضع للأسوار والحدود التي وضعها النحاة والفلاسفة،وينطلق بالنص إلى فضاء أشمل وأوسع حيث نجد الفعل يمتد ويستطيل ليشيع معنى الدوام والخلود في صميم قصيدة "الذبيح الصاعد"لتي نظمها الشاعر غداة تنفيذ حكم الإعدام في الشهيد **زيانا**، ففي هذه القصيدة نكتشف أن صيغة الماضي تلتقي مع صيغة الحال والاستقبال لتمتد دلالاتها وآثارها النفسية إلى مالا نهاية، فلقد استطاع الشاعر أن يحول أبيات هذه القصيدة إلى مشاهد متحركة عابرة للأزمنة بفضل توظيف الصيغ الفعلية وتوجيهها نحو آفاق وفضاءات تصنع الخلود والبقاء، وتتحدى الفناء وعندما نتأمل السياق الذي وردت فيه الأفعال، (يتهادى) (يستقبل) (يناجي) (يتسامى) (يشع) وعندما نستحضر أبعاد معاني الكلمات التالية: (الذبيح الصاعد) (المسيح) (ليلة القدر) (الصباح الجديد) نجد أن المعنى السامي الكبير الذي تشير إليه مكونات القصيدة هو الخلود والاستمرار في الحياة، يقول في قصيدة "الذبيح الصاعد":

قام يختال كالمسيح وئيـــــدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا
باسم الثغر كالملائك أوكالطفل يستقبل الصباح الجديـدا
شامخا أنفه جلالا وتيــــــها رافعا رأسه يناجي الخلـــود
وتسامى كالروح في ليلة القـــدر سلاما يشع في الكو عيـدا[16]

هذا الوجود الروحي المعنوي الذي يبدعه الأديب ويتحدى به الفناء والعدمية نجده عند كثير من الشعراء والكتاب منذ قديم الزمن، فنحن عندما نقرأ هذه الأبيات للخنساء في رثاء أخيها، نلاحظ أنها تسخّر كل الأدوات، والأبنية التي تمكنها من بعثه في وجدان الناس من جديد وأن تدخله في ديمومة مستمرة، وتثبت صورته من خلال ما أودعته في هذه القصيدة من صيغ وأساليب توحي بالبقاء والاستقرار، مثل تكرار أداة التوكيد" إن" ولام التوكيد ومثل تكاثر الصفات: نحار،عقار مقدام، سيدنا وتواجد الفعل المضارع الدال على الاستمرار والتجدد تقول:

وإن صخرا لواليّنا وسيّـدنا وإن صخرا إذ نشتو لنحّـار
وإنّ صخرا لمقدام إذا ركبوا وإنّ صخرا إذا جاعوا لعقّار
وإنّ صخرا لتأتم الهداة به كأنّه علـم في رأسه نـار
حمّال ألوية هبّاط أوديـــة شهّاد أندية للجيش جرار[17]

ولقد احتاط ابن عربي الشاعر الصوفي لما يمكن أن تتعرض له قصائده من قراءات سطحية بعيدة عن صلب الحقيقة والقيم الروحية التي كان ينشدها ويصوغها في أعماله الأدبية فبيّن لهم في هذه الأبيات كيف يعبر لوالج الشاعر الصوفي عن عواطفه، وبأي لسان يصف عوالجه ومشاهداته يقول:

كلّ ما اذكره من طلـــــل وربوع، أومغان كلمّــا أوهمو
أوهن جمعا أوهـــــــم هي أو قلت هو وكذا إن قلـــت
كل ما اذكره مما جـــرى ذكره أو مثلــه أن تفهـــمــا
منه أسرار وأنوار جـــلت أو علت جاء بها ربّ الســـما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلــما(18)

ذلك أن الخلفيّة الروحيّة التي كان يختزنها إبن عربيّ جعلته يصدر في شعره عن تجربة ساميّة، وينظر إلى الأشياء من منظور مغاير لما يجده أو يراه الشعراء الآخرون الذين عادة ما يستمدون ما يكتبون من حياتهم اليوميّة أو من معارفهم المختلفة.

نريد أن نقول أن قراءة شعر ابن عربيّ تستدعي استحضار كلّ التجارب الرّوحيّة والمعرفيّة التي تشكّل مجمل رؤاه وتهدي إلى المعاني المتخفيّة وراء سطح النّصوص.

ونخلص في خاتمة هذا البحث إلى القول بأنّ النّص الأدبيّ،أصبح يعيش أجمل أيامه،حيث انتقل النقاد من التقييم الشخصي، ودراسة الأدباء، قبل دراسة الأدب، إلى الاعتداد بالأبنية اللغوية والفنية ووظائفها داخل العمل الأدبي حيث استطاعوا - بفضل هذه الآليات أن يستنطقوا الأعمال الأدبية ويتواصلوا مع الرسائل الاتصالية التي يريد المبدع إبلاغها لسامعه وقارئه مما مكّنهم من معالجة كثيرا من القضايا الدلالية والجمالية التي عجزت أو تخلت عن تناولها المناهج النقدية الأخرى.

مصادر ومراجع البحث:

1. لسانيات النص:محمد خطابي،ص:301 المركز الثقافي العربي بيروت ط.1 ، 1999
2. نفسه،ص:302.
3. نفسه،ص:302.
4. مجلة فصول مقال للدكتور مالك المطّلبي :إنتاج ما أنتج، مقدمة نظرية المجلد الثامن العدد :1،2 ص:34.
5. littérature et signification Tzvetan Todorov page :7 librairie la rousse 1967
6. مجلة فصول، مقال للدكتور زكي نجيب محمود:الفلسفة والنقد الأدبي ص:15 المجلد الرابع العدد الأول القاهرة.
7. نفسه، ص:.160
8. فصول في اللغة والأدب،د عبد الكريم بكري ص:3 ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر
9. مجلة فصول د\زكي نجيب محمود ص:16.
10. فصول في اللغة والأدب ص:4،5 وانظر: الفكر الفرويدي وأثره في النقد العربي د\بن حليّ دكتوراه دولة جامعة الجزائر 1990.
11. مجلة فصول د زكي نجيب محمود ،ص:.85
12. نفسه،ص:.85
13. مجلة فصول مقال للدكتورة نبيلة عبيد العدد الأول ص: 104 وما بعدها
14. نفسه، ،ص:104.
15. فصول في اللغة والأدب د\ عبد الكريم بكري ص:6
16. نفسه ص:95
17. ينظر مقال للدكتور محمد صديق غيث، مجلة فصول العدد الثامن ص:93 وما بعدها
18. تنظر هذه الأبيات كاملة في:" ترجمان الأشواق" للشيخ محيى الدين بن عربي ص:10، وما بعدها مطبعة دار صادر بيروت لبنان